من عجائب الاجتهاد !

« لنـــاقد أديب »

قرأت كلمة الأستاذ زكى طليمات فى الذود عن مسرحية مفرق الطريق ، فسرنى والله إعجاب الكاتب بهذه المسرحية ، وتسجيله هذا الإعجاب لثالث مرة . وليس أدعى إلى السرور من أن تكون آثار أدبائنا موضع هذا الاهتمام من كتابنا الناقدين ، وأن يدور الإعجاب بينهم مدار الأنخاب ، فتنتفى الشكوك وتختفى الظنون ولا يكون هناك محل لعجائب الفهم أو عجائب الاجتهاد !

ومن الخير أن يكون لى نصيب من هذه الأنخاب ، فأسجل إعجابى بالأستاذ طليمات ؛ وفيما ذكره عن كانت وبرجسن وإبسن وغيرهم دليل على احتشاده للدفاع عن المسرحية أو عن رأيه الأول فيها

والأدباء الذين يعرضون للنقد لا يتناولونه من الجانب الهين ، ولكنهم لا يسمون إلى التعقيد أيضاً ، فإنهم يذكرون مع الأستاذ طليمات أن قصيدة الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى القمة الباردة ترجع إلى أصول من فلسفة « كانت » فى المعرفة . يذكر الأدباء هذا ويذكرون أن أداة « كانت » فى الوصول إلى حقائق الأشياء وما وراء الطبيعة هى « الشىء فى ذاته » Noumena ويذكرون أيضاً أن فلسفة « برجسن » فى المعرفة وحقائق الأشياء وما وراء الطبيعة تستعين بالبصيرة Intuition

فالمعرفة والوصول إلى حقائق الأشياء وما وراء الطبيعة غاية مشتركة ، وإن اختلفت الوسيلة أو الأداة ، وليست كما هى فى مسرحية مفرق الطريق ، هذه الأخيلة الذاوية أو الوجدان الكابى أو الصور المضطربة وإن ظنها البعض من مذاهب التصوف كما يقول بذلك الأستاذ ليروى Leroy فى بحوثه الأخيرة وتعريفه لفلسفة برجسن . والإلمام بالفلسفات شىء ، والتطبيق شىء آخر ؛ فلو ذهبنا فى التطبيق والمنطق لوجدنا أن هذه المسرحية تقوم على أشياء من هنا ومن هناك ؛ فهى من « كانت » ، وهى من « برجسن » ، وهى من « إبسن » ، وهى من أشياء أخرى لم يتحدث عنها النقاد ولا المؤلف ، لأنه يمضى بينها على غير هدى ، ولأن عجائب التحصيل والروية والاجتهاد لا بد أن تخلق عجيبة فى عالم الفلسفات ، وسبحان من يجمع العالم فى واحد . هذه الأشياء الأخرى التى تحدثت عنها فلسفة قديمة يقضى مذهبها أنه لا يحق لنا أن نستدل على وجود الكائنات بحياتنا الخارجية ، وأن العقل الفردى لا يثبت أى شىء خارج نطاق طائفة متلاحقة من الأحاسيس والتصورات والفكرات إلا إذا كانت فى نفوسنا ؛ فالوجودات لا وجود لها إلا بنا

يقول بهذا جماعة السوليبزم Solipism ويقول به مؤلف المسرحية ص ٢١ : « إن الأشياء لا وجود لها إلا بنا » ؛ ولا أغض من جهد المؤلف إذا قلت إن مسرحيته « تخريعة » فى الفلسفات وتصنيف من حشو التأليف ، فمن عجائب الفهم حقاً أن يتظنن بى الكاتب الفاضل وأن يخدعه إعجابه فيمضى إلى تعريف المذاهب الفلسفية ومابين الأستاذ العقاد ومؤلف المسرحية من فروق فيها ؛ والأمر لايحتاج إلى كل هذا العناء لأنى لم أتناول غير جانب الاقتباس ؛ والأستاذ زكى طليمات يقرر فى ختام مقاله أن لا بأس فى ذلك ، وأن المعانى والأفكار أشياء مبذولة للناس

وأنا لا أريد أن أخدع القراء بحديثى أو تخدعنى الفلسفات بحديثها عما أسلفت البرهان عليه . فأنا لم أختر للمسرحية الرمزية هذه الصعود الثلوجة ولا الطريق النار يمضى فيه العقل صاعداً ؛ وأنا لم أختر هذا المنحدر المظلم يمضى فيه الشعور هابطاً ؛ وأنا لم أخترع صراعاً بين قلب يحترق فى الظلمة ، وعقل يريد أن يمضى فى صعوده الثلوجة وطريقه النار ليحيا فى هدوء وعمق وصفاء البحر ؛ وأنا لم أدع فى ختام المسرحية دعوة الأستاذ العقاد فى ختام قصيدته إلى النزول والانحدار — لم أختر لهذه المسرحية كل هذه الأشياء ، وإنما اختارها المؤلف نفسه ، وتكلم عنها فى تبيينه ، فرأيت فيها قصيدة القمة الباردة وبيتين من قصيدة « قلبي » ... !

ولقد عملت هذه الأشياء عملها فى نفس وعقل الفنانة الباريسية « سوزان جوفروا » فكانت الصورة المزدان بها غلاف

المسرحية ، وإذا الصورة جبل تفعلى قمته الثلوج ، ومفرق طريق تقوم فيه شجرة جرداء قد شظف عودها أو « فترت عندها الحياة »، وطريق منار ينتهى بين الثلوج إلى هذه القمة، ومنحدر يمضى فى الظلام إلى أدنى الجبل حيث مشاهد الحياة وضرامها . هذا ما فهمته الآنسة الفنانة من المسرحية ، صورته بريشتها رمزاً ، فكون هذا الرسم من تصميمها وليس من عمل المؤلف دليل على صحة رأيي وليس دليلاً على غيره

ولـكن الأستاذ طليمات يقول فى كلمته « وقد شرح المؤلف وضع المسرح فى التبيين الذى صنعه للمسرحية ص ١٤٠ مشيراً إلى رمز الغلاف ، ولم ترد فى تبيينه كلمة (قمة) ولا (غور) وأرى بعد الذى ذكرته أن الأمر لا يتطلب هذا التعريف ، فماذا تنتهى صعود مثلوجة على جانب جبل ؟ ألا تنتهى (بقمة) ! وإلى أين ينتهى منحدر على سفح جبل ؟ ألا ينتهى إلى (غور) ! فالقمم والأغوار يملأ حديثها الأدب العربى والآداب الأخرى ، ولا يقابل القمة فى الصعود والارتفاع غير الغور فى الهبوط والانحدار .

وأريد أن أقف هنا قليلاً ، وأقف عند كلام من تبيين المؤلف ، فى مفرق الطريق هذا يتصارع العقل والشعور ، فإذا انتصر العقل فقد مضى صاعداً وصاعداً بين الثلوج ، وإلى أين ؟ أليس لهذا الصعود من غاية ، أو ليس لهذا الطريق المنار من نهاية ، أليست هى القمة الباردة أو ثلوج الذرى ؟

ويقول الـكاتب الأديب إن الثلج عند بشر فارس رمز إلى خلاص النفس من ألم الإحساس البشرى ، وهذا التفسير جزء من كل ، لأنه إذا انعدم الشعور بالألم فقد انعدم أيضاً الشعور باللذة ، هو انعدام الإحساس إطلاقاً بحاجات الحياة ، وهو العقل المجرد فى فلسفة « كانت »، لأن انعدام الشعور معناه أن لا قلب هنا، وإنما يوجد عقل موغل فى طريق المعرفة ، فالمؤلف قد أخذ لنفسه من قصيدة العقاد ما رآه موائماً لموضوعه، ملائماً لصور المسرحية. ولا يغنى الـكلام شيئاً حين نقول إن المسرحية تدور حول قضايا النفس البشرية ، فإن العقل له أثره الظاهر فى هذه القضايا ، وسبق الـكلام على ذلك فى مستهل هذه الـكلمة ، وفى حديث فلسفات Kant و Bergson و Solipism

وأخيراً فإنى لم أتناول هذه المسرحية إلا من جانب واحد ، هو جانب الاقتباس ، ولم أبد فيها رأياً كما أبداه الكثيرون ومنهم الأستاذ طليمات، ولم أتعرض لهذه الرمزية المصنوعة بعد التحصيل والروية والاجتهاد ؛ والأصل فى الرمزية أن تنشأ مع النفس وفى التفكير ، لأنها التعبير عما وراء الطبيعة ، أو ما وراء أفق الشعور ، بما تعجز الألفاظ عن إبانته والإفصاح عنه ؛ فإذا كان التعبير مستطاعاً ، وإذا كانت الألفاظ قادرة أن تؤدى معانى النفس وخطرات العقل فى يسر وإيضاح ، فلا موجب إذن لهذا الاصطناع

ولم أر فى المسرحية إلا حواراً عادياً ، ومعانى لا ترتفع عن أفق الشعور ، وصوراً من الأحاسيس لا تضيق بها الألفاظ ، وإشارات لا تجد اللغة عسراً فى الإبانة عنها وهى فى سعة ، لم أجد شيئاً غير هذا ، ولـكنى وجدت أدبياً يؤلف ليقال عنه إنه رمزى

نشأت الرمزية مع النفس ولم تصنع ، نشأت فى الأدب كما نشأت الواقعية والبارناسية وغيرها ، ومحال أن يكون فى استطاعة الـكاتب أن يكتب ، وأن يكون مجال الإشراق والطلاقة مهيأ له ، فيغمض ويبهم ويظلم ، ويسعى إلى الرموز والـكنايات عمداً وكدًّا ، لا اضطراراً ولا فنًّا فيفقد طلاقته الفنية ، وإشراقه الوجدانى ، كما صنع مؤلف مسرحية مفرق الطريق . بينما الطريق أمامه عريض ومتسع وممتد إلى غايات كثيرة فى المسرحية الرمزية ، وفى استحداث التشابيه والإغراب فيها كما شاء مع لطف الإشارة ورشاقة التخلص ؛ وهذا الغموض الذى يلقى ظلاله أحياناً فيبهر ويسحر ، وخصوصاً إذا كانت القضية هى قضية القلب والعقل بين امرأة ورجل ! ، ولا أنسى حديث الرمزية عن المقبرة البحرية للشاعر الفرنسى بول فاليرى ، وقد ذهب إليه جماعة من النقاد والـكتاب يستوضحونه ما استغلق عليهم من معانى هذه القصيدة الرمزية وكلماتها ، فـكان جوابه لهم أنه لا يملك إيضاحاً ولا إبانة أكثر مما عبر به من الـكلمات والعبارات فى قصيدته

وهأنذا قد خلصت من ضباب هذا الإبهام أو الإيهام ، وما أرانى إلا كهذا الإنجليزى الذى كان يسمع عن أشباح هائلة تظهر